أبحاث النقد المسرحي

بقلم الدكتور : محمد مندور

من المعلوم ان المعهد العالي لفن التمثيل العربي التابع لوزارة التربية والتعليم في مصر يشتمل على شعبتين :

شعبة للتمثيل، وشعبة للنقد والبحوث الفنية .

وتقضي لائحة المعهد بأن يشمل امتحان الدبلوم، اي السنة الرابعة في قسم النقد والبحوث الفنية، نوعين من الاختبار : اختبار تحريري، ثم كتابة بحث عن مسألة من مسائل النقد والأدب التمثيلي، على ان تناقش هذه الأبحاث مناقشة علنية أمام لجنة تتكون من أساتذة المعهد وأساتذة خارجيين .

وقد تقدم لدبلوم المعهد في شعبة النقد هذا العام ثلاثة طلاب بثلاثة أبحاث هي :

١ — المجتمع المصري في مسرح الحكيم .

٢ — لغة المسرح في الشعر العربي .

٣ — أوديب بين سفوكليس وجيد والحكيم .

وقد ناقشت هذه الأبحاث اخيراً لجنة مؤلفة من السادة الدكاترة : ابراهيم سلامة ومحمد القصاص وشوقي ضيف ووهيب كامل وكاتب هذه السطور .

وكان صاحب البحث الأول هو الطالب حسين أبو المكارم. وقد أسفر بحثه عن «المجتمع المصري في مسرح الحكيم» ومناقشة اللجنة لهذا البحث عن اثبات ان الأستاذ توفيق الحكيم له الى جوار مسرحياته الذهنية التي استقى مادتها من الأساطير الشرقية والعربية كمسرحيات : أهل الكهف ، بجماليون ، شهر زاد وبراكسا أو مشكلة الحكم، وسليمان الحكيم، والملك اوديب، وهي مسرحيات رمزية ذهنية تناقش عدة مشاكل انسانية وفلسفية دون احتفال كبير بتصوير الشخصيات وبالحركة الدراماتيكية — نعم ثبت أن الأستاذ الحكيم له الى جوار هذا المسرح الذهني مسرح سماه هو نفسه بمسرح المجتمع . وقد نشرت هذه المسرحيات التي يبلغ عددها ٢١ مسرحية بهذا العنوان. وان تكن المناقشة قد أسفرت عن ان الأستاذ الحكيم لم يضع حدوداً تميز ما يسميه مسرح المجتمع عن غيره من أنواع المسرحيات . وقد لاحظت لجنة المناقشة وجود مسرحية بالذات ضمن مسرح المجتمع لا يمكن اعتبارها داخلة في هذا المسرح، لأنها لا تقوم على معالجة مشكلة اجتماعية عامة، بل تعالج غريزة حب الحياة وسيطرتها المطلقة على كافة المثاليات والعواطف الخيرة، وهي مسرحية «اريد ان أقتل» التي يعرض فيها الأستاذ الحكيم رجلا وزوجته يتبادلان عبارات الوفاء والمحبة والاخلاص الى حد ابداء كل منهما رغبته في أن يسبق زميله الى الموت حتى لا يفجع وهو حي بأعز حبيب لديه. وفي تلك الأثناء تقتحم عليهما الدار فتاة ملتاثة تسكن الى جوارهما وفي يدها مسدس اشهرته معلنة أنها قد قررت أن تقتل احدهما ولا بد أن تنفذ قرارها ، ولذلك فهي تطلب اليهما أن يتفقا على الشخص الذي تقتله، وعندئذ يأخذ كل من الزوجين في الضراعة الى الفتاة ان تقتل الشخص الآخر، وفي النهاية تطلق الفتاة المسدس فاذا هو محشو بالبارود لا بالرصاص. وبذلك يتضح ان هذه المسرحية لا تعتبر من مسرح المجتمع بل هي من قبيل المسرح الذي يصدر عن المذهب الفلسفي الأدبي الذي يسميه الأوربيون بالمذهب الطبيعي، وهو ذلك المذهب الذي يرى ان الغرائز وحقائق الانسان العضوية هي التي تسيطر في النهاية على سلوكه الفردي وتحطم مثالياته .

واتضح ان صاحب البحث لم يتقيد في تحديد مسرح المجتمع بما نشره الأستاذ الحكيم تحت هذا العنوان، وذلك بدليل أنه قد تناول في بحثه أيضاً مسرحية « أيزيس » التي أصدرها الأستاذ الحكيم أخيراً. وهي مسرحية وان تكن مأخوذة من الأسطورة المصرية القديمة، الا أن الحكيم قد حاول ان يجردها من طابعها الأسطوري القديم، وان يقربها الى الحياة الانسانية العادية، وفيها يشيد بالمرأة وموقفها الايجابي في الدفاع عن زوجها « أوزيريس » الذي يطارده الشر مجسماً في « طيفون » بل ويحرص الأستاذ الحكيم في تذييل له عن هذه المسرحية على أن يوضح الفارق الكبير بين « أيزيس » المصرية ذات الدور الايجابي في الوفاء لزوجها و« بنلوب »الأغريقية التي رغم وفائها لزوجها لم تدافع عن هذا الوفاء، الا دفاعاً سلبياً وذلك بطلبها من خاطبيها الذين ظنوا أن زوجها « اوليس » لن يعود حياً من رحلته الطويلة — أن يمهلوها الى أن تتم نسيجاً كانت تنسجه ، وفي كل ليلة كانت تنقض ما تنسجه نهاراً لتمد في الأجل على أمل أن يعود زوجها . وبالفعل عاد وانقذها من الخطاب الطامعين . ولم يفت صاحب البحث أن ينوه بذلك التغير الكبير في نظرة الأستاذ الحكيم للمرأة. فبعد أن كان في صدر حياته يطيب له ان ينعته الناس بأنه « عدو المرأة » وبعد أن كتب في سنة ١٩٢٣ مسرحية بعنوان « المرأة الجديدة » لفرقة عكاشة صور فيها المآسي الأخلاقية التي تتهدد المرأة العصرية نتيجة للسفور وبعد أن كتب منذ سنوات مسرحية أخرى هي « النائبة المحترمة » يصور فيها المهازل التي تقع في حياة الأسرة وفي المجتمع نتيجة لاشتغال المرأة بالسياسة وخروجها عن دائرة بيتها نراه في سنة ١٩٥٥ يكتب مسرحية « ايزيس » التي تبز فيها المرأة ببطولتها كافة الرجال وتتحمل العبء الضخم في انقاذ زوجها « اوزيريس » ثم ابنها « حوريس » من براثن الشر، وبذلك ينتصر بفضلها الخير الذي يعم وادي النيل كله بالبركة والخضرة والنماء .

واحتدمت المناقشة في هذا البحث حول أمرين كبيرين :

اولهما البحث في الصورة الأدبية التي تصلح لمعالجة المشاكل الاجتماعية وعرضها وتفسيرها، وهل الصورة الأصلح هي المسرحية ام القصة، واذا كانت المسرحية فأي نوع من المسرحيات اكثر صلاحية في هذا الصدد : الدراما أم الكوميديا . واذا كان النوعان يصلحان، فهل من الواجب او من الملاحظ ان كل نوع منهما ينفرد بعلاج طائفة من تلك المشاكل على نحو ما يشاهد من ان الكوميديا تعالج في الغالب مشاكل المجتمع السطحية الناتجة عن العادات والتقاليد، بينما تعالج الدراما في الغالب مشاكل المجتمع العميقة الراجعة الى مبادئ السلوك وأصول الأخلاق، حتى ليبدو أنه لا تكاد الكوميديا تتعمق الغوص وراء بعض النقائص

٢١

حتى تنقلب الى دراما يتضح فيها طابع المأساة على نحو ما نشاهد في الكثير من أفلام الممثل الموهوب شارلى شابلن، حيث تبدو في مظهرها مضحكة، وهي في جوهرها وحقائقها العميقة تقطر أسى وحزناً . وكان ثاني الأمرين البحث في يميز الأدب عن الصحافة وكيف يمكن أن تضمن المسرحيات الاجتماعية البقا ودوام التأثير في القراء والمشاهدين، رغم معالجتها لمشاكل او ظواهر اجتماعية عابرة تسرع الى التغير فتفقد اهتمام الناس بها . وقد فاقشت اللجنة كمثل لهذه الحقيقة مسرحية « المرأة الجديدة » التي كانت تثير في سنة ١٩٢٣ اهتمام الجمهور لأنها كانت تعرض عندئذ لمشكلة تلوكها الألسن وهي مشكلة السفور وخطره على الأخلاق العامة والخاصة، ثم فتر اهتمام الناس بمثل هذه المشكلة بعد ان لم يعد لها وجود ، وأصبح من المسلم به أن للمرأة الحق المطلق في السفور بل وأسفرت بالفعل وأصبحت تشارك الرجل في جميع ميادين الحياة سافرة مثله سواء بسواء .

وقد اتضح من المناقشة ان الفنان الموهوب يستطيع رغم معالجته لمشاكل عارضة قد تزول أن يكسب ادبه صفة البقاء ودوام التأثير ، وذلك بفضل خصائص أسلوبه والأسس الانسانية الباقية التي يظهرها خلال معالجته لتلك المشاكل .

* * *

وكان صاحب البحث الثاني عن « لغة المسرح في الشعر العربي » الطالب عبد الستار كمال ، وقد تناول فيه المسرحيات الشعرية والزجلية التي كتبت في اللغة العربية منذ « مارون النقاش » حتى الأستاذ « عزيز أباظة » . وان يكن قد ركز بحثه في المسرحيات القديمة مثل « البخيع » و « أبو الحسن المغفل » « الحسود السليط » لمارون نقاش ومسرحية « عفيفة » لأحمد أبو خليل القباني ومسرحية « المروءة والوفاء او الفرج بعد الضيق » لخليل اليازجي . وذلك باعتبار أن المسرحيات الأحدث عهداً كمسرحيات شوقي وعزيز أباظة قد تناولها بالدرس كثير من الباحثين . وان يكن من الواضح ان هذه الحجة لا تستقيم وذلك بدليل أن الباحثين لا يزالون حتى اليوم يتناولون بالبحث مسرحيات شكسبير مثلا ويأتون فيها بجديد ، بالرغم من أن شكسبير قد كتب عنه حتى الآن ما يملأ مكتبات بأكملها .

توفيق الحكيم

وقد لاحظت اللجنة ان هناك نقصاً كبيراً في الأصول والمراجع التي يجب أن تتوفر لكل باحث في تاريخ التأليف المسرحي عند العرب المحدثين ، فصاحب البحث لم يستطع أن يعثر لهؤلاء الرواد الا على « أرزة لبنان » وهو كتاب موجود بدار الكتب المصرية ويحتوي على مسرحيات مارون النقاش ، كما عثر على مسرحية واحدة للقباني وهي مسرحية « عفيفة » التي وجدها أيضاً بدار الكتب ولم يجد غيرها ، مع أن القباني قد كتب عدة مسرحيات . وأما مسرحية اليازجي فلم يعثر عليها الطالب الا عند أحد المعنيين بشئون المسرح الذي سمح له بأن يطلع عليها في منزله وأن ينسخ منها بعض صفحات .. وهو الدكتور محمد يوسف نجم .

وقد سجلت اللجنة في مناقشتها هذا النقص ورجت أن ينهض معهد التمثيل أو مصلحة الفنون بوزارة الارشاد بتكوين مكتبة كاملة للأدب المسرحي العربي الحديث، وذلك باعادة طبع ماسبق نشره من هذا الأدب ونفدت طبعاته أو بطبع مئات ان لم تكن آلاف المسرحيات التي مثلت ، ولا تزال حتى اليوم مخطوطة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة فحسب ومكدسة في دور الفرق التمثيلية المختلفة أو في ادراج مكاتب بعض الأشخاص . بل لقد ذكر أحد اعضاء اللجنة وهو الدكتور محمد القصاص أنه قد اطلع على مكتبة مخطوطة كاملة لمسرحيات مثلت ، وهذه المكتبة موجودة عند أحد الأشخاص ، وقد تقدم الدكتور القصاص بمذكرة الى المعهد لشراء هذه المكتبة النافعة ولكن المعهد لم يفعل شيئاً حتى الآن بسبب عدم وجود اعتمادات خاصة في ميزانيته لمثل هذا العمل النافع .

وبالرغم من سقم اللغة التي كتبت بها هذه المسرحيات الشعرية الأولى، إلا أن مناقشتها قد أفسحت مع ذلك المجال للبحث في الأسلوب الشعري الذي يجب أن يستخدم في كتابة المسرحيات الشعرية وفي الصورة التي يحسن أن تتخذها تلك الشخصيات

فأما عن الأسلوب الشعري فقد أوضحت المناقشة أن هذا الأسلوب يجب أن تتوفر بفضله الحركة الدراماتيكية وذلك بأن ينقل المسموعات الى مرئيات بقدرته على التصوير ، كما يجب عليه أن يمكن الممثل من النهوض بدوره وذلك بأن يسمح لهذا الشعر بأن يقطع الى جمل او فقرات مسرحية تتفق مع الأداء التمثيلي الذي يخرج بالتمثيل عن مجرد الإنشاد او الالقاء .

وأما من ناحية الصورة فقد أوضحت المناقشة أنه ربما كان من الأفضل أن يتخذ المسرح الشعري صورة المسرح الغنائي على نحو ما كان الحال عند اليونان القدماء ، حيث كان المسرح يجمع بين الحركة والحوار والغناء والموسيقى دون أن يطغي عنصر منها على الآخر ، ولا ضرورة ملزمة لأن نجاري التطور العالمي للمسرح ، وهو ذلك التطور الذي فصل المسرح الغنائي فصلا تاماً عن الأدب التمثيلي وجعله جزءاً من الموسيقى وتاريخها . وقد ذكرت انا بالذات ما لاحظته عند تدريسي لمسرح شوقي الشعري في معهد الدراسات العربية العليا من أن هذا المسرح يمكن أن ينجح نجاحاً رائعاً لو أنه قدم كأوبرا ولحن تلحيناً كاملا اذ أن طابعه الغنائي سيصبح عندئذ ميزة له ومتعة للمشاهدين بدل ان يعتبر عيباً وافساداً للحركة الدراماتيكية وبالتالي اضعافاً لتأثر المشاهدين به .

* * *

وأما المقارنة بين أسطورة اوديب عند الشاعر الأغريقي القديم سفوكليس والأديب الفرنسي المعاصر أندريه جيد وأديبنا المصري توفيق الحكيم فقد تناولها بحث الطالب محمد كمال جمعة .

وقد أوضحت المناقشة كيف أن هذه الاسطورة منذ أن صاغها أدبياً مسرحياً الشاعر الكبير سفوكليس أصبحت أقوى من أن تخضع لأي كاتب آخر وبخاصة وان هناك شبه اجماع عالمي على أن مسرحية « أوديب ملكا » لسفوكليس أقوى

٢٢

ما أخرجته عبقرية البشر للمسرح ، حتى لنلاحظ أن الفيلسوف ارسطاطاليس قد أعتمد عليها قبل كل شيء في استخلاص الأصول التي يجب أن يقوم عليها التأليف المسرحي المثالي وهي تلك الأصول التي أصبحت في عصر النهضة الأوربية انجيلا لهذا النوع من التأليف .

ولذلك اتضح من البحث أن هذه الأسطورة قد فقدت عندالكاتبين المعاصرين أندريه جيد وتوفيق الحكيم قوة الدراما العاتية التي كانت لها عند سفوكليس وأصبحت عندهما مجرد حوار جدلي غايته عند جيد اظهار الصراع بين الانسان وسطوة المعتقدات الدينية والأخلاقية، وكأنها بذلك بذرة لذلك المذهب المعاصر الذي كانت له أصوله وارهاصاته قبل ان يولد في أيامنا هذه ويتخذ له ذلك الاسم المدوي وهو « الوجودية » . وأما عند الحكيم فقد زعم أديبنا أنه قصد في مسرحيته الى علاج الصراع بين ما سماه بالواقع وما سماه بالحقيقة، وانتهى به هذا الصراع الغامض غير المفهوم الى نتيجة محزنة لا تخالف فحسب روح الاسلام التي يدعي كاتبنا أنه قدحرص عليها بل وتخالف كافة الديانات والاخلاق والحضارات، وذلك عندما نراه يدفع أوديب حتى بعد أن اكتشف أنه قد قتل أباه وتزوج من امه الى أن يحاول ان يغري أمه وزوجته « جوكسته » بالاستمرار في معاشرته معاشرة الأزواج حتى ولو هربا معاً الى بلد آخر وذلك استمراراً لما سماه بالصراع بين الواقع والحقيقة. وعندما ترفض «جوكسته» هذا العرض المخزي ونشنق نفسها انتحاراً يحمل الحكيم أوديب على أن يفقأ عينيه لا تكفيراً عن اثمه كما قال سفوكليس بل حزناً على أمه التي لا يزال يعشقها وحرصاً على ان يبكيها كما يقول أديبنا سامحه الله بدموع من دم .

ولما كان الأستاذ الحكيم قد زعم في المقدمة التي كتبها للمسرحية أنه قد حرص على ان يعالج الاسطورة من وجهة نظر الاسلام ، وأنه قد حور فيها لهذا السبب ولم يجعل الشر آتياً من الآلهة بل من كذب وتآمر الكاهن « ترسياس » الذي نسب للآلهة ما هي بريئة منه باعتبار ان الشر لا يمكن ان يصدر عن الآلهة ، فقد تناولت اللجنة بالمناقشة مسألة الجبر والاختيار في الاسلام واوضحت هذه المناقشة ان هذه المسألة خلافية عند المسلمين وأن القرآن نفسه به آيات تثبت أن الله هو الذي يلهم النفس فجورها وتقواها، وأن كل شيء من عنده يصيبهم من خير فمن الله ، بل وأوضحت أنه بصرف النظر عن وجود هذا الخلاف بين أئمة المسلمين وفقهائهم ، فان الايمان بالقضاء والقدر وبأن الخير والشر مكتوبان معاً على الجبين هي الفكرة السائدة الغالبة عند المسلمين في كافة بقاع الأرض، بحيث أنه لم تكن هناك ضرورة اسلامية تجبر الحكيم على أن يغير من الاسطورة القديمة التي جعلت الشر صادراً عن القضاء والقدر ، وبالعكس كانت هناك ضرورة اسلامية بل دينية وأخلاقية عامة تلزمه بأن لا يقدم ذلك المشهد المخزي الذي يحاول فيه اوديب ان يغري أمه بالاستمرار في معاشرته معاشرة الأزواج بعد أن اكتشف حقيقة علاقته بها .

* * *

وبالجملة فقد كانت هذه المناقشات كعادتها في كل عام مناقشات عميقة ممتعة ولكنه لا يستفيد منها لسوء الحظ غير عدد قليل ، وذلك لنقص الاعلان عنها وعدم نشرها في الصحف والمجلات ، فضلا عن ضرورة عمل المعهد أو مصلحة الفنون أو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب على نشر الممتاز من الأبحاث التي تقدم كل عام والمناقشات التي تدرو حول هذه الأبحاث التي لا نبالغ اذا قلنا ان بعضها يرتفع فوق مستوى أبحاث الدراسات العليا في الجامعات وذلك بشهادة أساتذة الجامعات أنفسهم الذين يشتركون في لجان تلك المناقشات والسبب في هذا التفوق هو التخصص الدقيق الذي يقوم عليه هذا المعهد والدقة في اختيار أساتذته .

القاهرة **محمد مندور**

الثريات الانيقـــــة

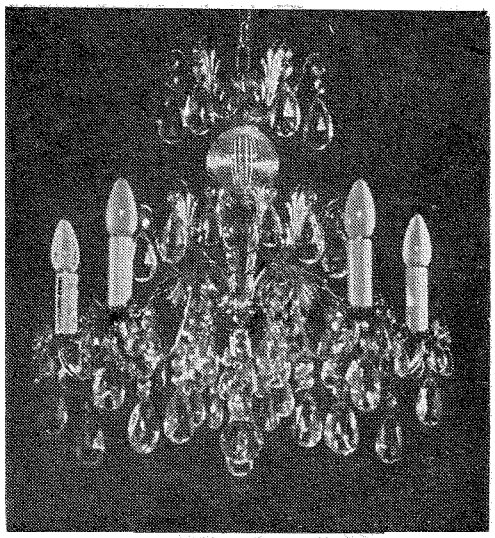

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت